

قراءة مقارنة لسلوك الطرق الصوفية اتجاه السلطة العثمانية وسلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر

A comparative reading of the behavior of the Sufi orders towards the Ottoman authority and the French occupation authority

رامي سيدي محمد

جامعة عباس لغرور بخنشلة (الجزائر)، (rami.med@univ-khenchela.dz)

تاريخ النشر: 2024/11/10

تاريخ القبول: 2024/02/19

تاريخ الاستلام: 2022/01/10

ملخص:

نسلط الضوء من خلال هذه الورقة البحثية على أهم الطرق الصوفية في الجزائر خلال فترة الحكم العثماني بالجزائر، خاصة نهايته، وفترة تواجد الاحتلال الفرنسي بها، وخاصة بدايته، وفروعها وأماكن انتشارها؛ ثم نبين باستعمال منهج المقارنة علاقتها مع السلطة العثمانية، من خلال استمالة شيوخها ومنحهم صلاحيات واسعة، من أجل التحكم في القبائل المتواجدة بها والسيطرة عليها، وكيف كانت ردود الأفعال المختلفة لهذه الطرق الصوفية اتجاه السلطة العثمانية بين التحالف والتخالف.

بالمقابل سنحاول أن نوضح علاقتها بسلطة الاحتلال الفرنسي وكيف انقلبت من قيادتها للمقاومة العسكرية ضدها في البداية إلى مهادنتها والتعاون معها في مرحلة لاحقة، وهذا بالتركيز على ما جاء في كتابات ضباط الجيش الفرنسي.

كلمات مفتاحية: الجزائر، الطرق الصوفية، السلطة العثمانية، الاحتلال الفرنسي، المقاومة.

Abstract:

We shed light through this research paper on the most important Sufi orders in Algeria during the period of the Ottoman rule in Algeria, especially its end, and the period of the French occupation in it, especially its beginning, its branches and places of spread; Then, using the comparative method, we show its relationship with the Ottoman authority, by winning over its sheikhs and granting them wide powers, in order to control and control the tribes present in them, and how the different reactions of these Sufi orders were towards the Ottoman authority between alliance and disagreement.

On the other hand, we will try to explain its relationship with the French occupation authority and how it turned from its leadership of the military resistance against it in the beginning to its appeasement and cooperation with it at a later stage, and this is by focusing on what was stated in the writings of the French army officers

Keywords: Algeria, Sufi orders, Ottoman authority, French occupation, resistance.

مقدمة:

تميزت الطرق الصوفية منذ تواجدها بالجزائر بتعدد مهامها في الجانبين الديني والحضاري، حيث كانت تعمل على نشر الإسلام داخل الجزائر وخارجها خاصة نحو الصحراء الكبرى في إفريقيا، فقد كان لشيخو الطرق الصوفية الأثر الكبير في تحويل عدد الكبير من الأفارقة من الوثنية إلى الإسلام، وتصويبه وتثبيته في نفوسهم، وذلك لطبيعة الطرق الصوفية الدينية والاجتماعية الخاصة، وكان يعتمد شيخو الطرق الصوفية على كونهم قدوة للغير في رسالتهم الدعوية، فهم يتمتعون بطباع وصفات حميدة، وزهد في الدنيا وملذاتها، إضافة إلى كثرة الصلاة والصوم والصدقة وكثرة الوضوء والنظافة، وأمانتهم ومظهرهم الجميل بالملابس البيضاء التي كانت تجذب الناس وتؤثر فيهم.

التعلق الكبير وحب التقليد والاتباع الشبه الأعلى هو أكثر ما يميز أتباع شيخو الطرق الصوفية، ليس فقط في الجوانب الدينية، بل في مختلف جوانب الحياة اليومية لسكان القبائل التي تتواجد فيها زوايا الطرق الصوفية، ولم يكن شيخو الطرق الصوفية في الغالب من طبعهم طلب السلطة السياسية، لكنهم كانوا على علاقة مباشرة بالسلطة الحاكمة في البلاد، بسبب وزنهم الديني والشعبي، حيث كانت السلطة الحاكمة تتوخى الحذر في التعامل مع الطرق الصوفية وتحاول استمالة شيخوهم حتى يتقبلوا هذه السلطة ويبقون تابعين لها ولا يحاولون الخروج أو الثورة عليها.

وتتمحور إشكالية هذه الورقة البحثية حول التباين في علاقة الطرق الصوفية في الجزائر مع السلطة الحاكمة في فترتي الحكم العثماني والاحتلال الفرنسي.

وتندرج تحت هذه الاشكالية مجموعة من التساؤلات التي نحاول الإجابة عنها، أهمها:

- ما هي أهم الطرق الصوفية في الجزائر خلال العهدين؟ وكيف اكتسبت هذه الأهمية من خلال تعاملها مع السلطة الحاكمة ومع عامة الناس؟
- كيف تميزت علاقة الطرق الصوفية مع السلطة الحاكمة؟ وما هي العوامل التي كانت تتحكم في هذه العلاقة؟
- لماذا كانت تتقلب هذه العلاقة بين التحالف والتخالف سواء مع سلطة العثمانيين أو مع سلطة الاحتلال؟

- ما هي أهم أوجه التماثل والاختلاف بين علاقة الطرق الصوفية مع السلطة العثمانية ومع سلطة الاحتلال الفرنسي؟

ونهدف من خلال هذه الورقة البحثية وبلاستعمال منهج المقارنة والمقاربة إلى محاولة تبين سياسة السلطة الحاكمة بالجزائر سواء في فترة العثمانيين أو فترة الاحتلال الفرنسي في التعامل مع الطرق الصوفية، وكيف كان رد فعلها اتجاه هذه السياسة، وذلك بالاعتماد أساسا على كتابات المؤرخين الفرنسيين وخاصة ضباط الجيش الفرنسي، لأنهم أكثر من كتبوا حول الطرق الصوفية في فترة نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، طبعاً مع نقد ما جاء فيها لأن بعضها يعبر عن توجه الإدارة الاستعمارية وذلك بالاعتماد على مصادر ومراجع لمؤرخين جزائريين.

1. تأسيس الطرق الصوفية بالجزائر، فروعها وانتشارها:

عرّف بعض المستشرقين الطريقة الصوفية بأنها جملة مراسيم وتنظيمات للجماعات الصوفية أو مجموعة أفراد من الصوفية ينتمون إلى شيخ معين، ولهم نمط سلوكي روحي، فالطريقة عقد بين المريد والشيخ، فالشيخ يتولى إرشاد المريد، وعلى المريد أن يلتزم بالطريقة (مجموعة مستشرقين، ص.172)

ويصعب وضع إحصاء دقيق للطرق الصوفية في الجزائر خاصة في الفترة العثمانية وبداية الفترة الاستعمارية، لكن عددا من المؤرخين الفرنسيين أهمهم: لوي رين (Louis Rinn)، وديبون (Octave Depont) وكوبولاني (Xavier coppolani) وغيرهم أعطوا عدة تصنيفات وإحصاءات للطرق الصوفية في الجزائر، سنحاول أن نعتمد على بعض الجداول من كتاب ديبون وكوبولاني.

شكل 1

جدول إحصائي لمختلف الطرق الصوفية في الجزائر

ETAT NUMÉRIQUE DES CONFRÉRIES RELIGIEUSES MUSULMANES QUI ONT DES ADEPTES EN ALGÉRIE															
NUMÉROS D'ORDRE	NOMS DES CONFRÉRIES	ZAOUÏA	OUKLA	TOLBA	CHIOUKH	MOQADDIM	CHOUACH	KHOUAN	DEROUICH	HABAB	KHAOUNIET	KHALIFA	FOORA	KHODDAM	TOTAUX DES AFFILIÉS
1	Qadria.....	33	1	521	4	301	"	21.056	"	"	2.695	"	"	"	24.578
2	A'roussia, Selamia ou Sou- lamia.....	2	"	"	"	3	6	77	"	"	5	"	"	"	91
3	Aïssaouia (Aïssaoua).....	10	5	"	1	39	58	3.444	"	"	33	"	"	"	3.580
4	Bou-A'ïia.....	4	"	"	"	6	10	266	"	"	82	"	"	"	364
5	A'mmaria.....	26	3	79	3	46	488	284	"	"	22	36	5.774	"	6.435
6	Corporation de Ben Nahal.....	1	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	220	1.500	1.720
7	Rahmania.....	177	11	676	23	873	849	140.596	"	"	13.186	"	"	"	156.214
8	Derdouria de l'Aurès.....	1	"	"	1	1	"	1.020	"	"	250	"	"	"	1.272
9	Tidjania.....	32	9	"	2	165	162	"	19.821	"	5.164	"	"	"	25.323
10	Chadelia.....	11	"	195	9	99	"	13.251	"	"	652	"	"	"	14.206
11	Zerroukia.....	1	"	55	1	16	13	2.614	"	"	35	"	"	"	2.734
12	Youcefia.....	1	"	"	1	8	"	1.437	"	"	"	"	"	"	1.446
13	Cheikhia.....	4	11	"	"	45	"	10.020	"	"	140	"	"	"	10.216
14	Naceria.....	2	"	"	1	3	4	468	"	"	165	"	"	"	641
15	Chabbia.....	2	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	2.500
16	Taïbia.....	8	21	128	"	234	108	19.110	"	"	2.547	"	"	"	22.148
17	Hansalia.....	18	3	176	1	48	102	3.485	"	"	438	"	"	"	4.253
18	Ziania.....	2	"	"	"	76	4	2.673	"	"	364	"	"	"	3.117
19	Kerzazia.....	"	"	"	"	78	"	1.673	"	"	263	"	"	"	2.014
20	Derqaoua.....	10	"	134	9	72	2	"	8.232	"	1.118	"	"	"	9.567
21	Madania.....	2	11	"	"	44	1	1.673	"	"	"	"	"	"	1.699
22	Les Mokhalia.....	"	"	"	"	2	"	420	"	"	"	"	"	"	122
23	Senoussia.....	1	1	35	1	20	5	874	"	"	13	"	"	"	949
		349	76	1.999	57	2.149	1.512	224.141	8.232	19.821	27.172	36	5.994	4.000	295.189

المصدر: Octave Depont et Xavier coppolani , Les confréries religieuses musulmanes, p215

ملاحظة: لم نعد كتابة الجدول للحفاظ على أهمية شكله من المصدر .

الملاحظ أن ديبون وكوبولاني أحصوا 23 طريقة صوفية مختلفة في الجزائر مع نهاية الوجود العثماني وبداية فترة الاحتلال الفرنسي، كان أهمها التيجانية، الرحمانية والقادرية، والطيبية وذلك حسب عدد زواياها وشيوخها ومرابطيها ومريديها في كل جهات الجزائر (coppolani & Depont, 1887).

شكل 2

جدول يوضح مداخيل بعض زوايا الطرق الصوفية في الجزائر

NOMS DES CONFRÉRIES RELIGIEUSES et INDICATION DES ZAOÛIA PRINCIPALES qui centralisent LA SADAQA DES ADEPTES ALGÉRIENS	NOMBRE D'ADEPTES ALGÉRIENS d'après le DÉNOMBREMENT DE 1896	REDEVANCE annuelle AU MINIMUM	EVALUATION EN ARGENT des redevances payées en une année aux CHOUKH ET MOQADDIM en résidence A L'ÉTRANGER
KERZAZIA Zaouïa de Kerzaz (Maroc); cheikh Ahmed ben Kebir.....	2.014	10 »	20.140 »
MADANIA Zaouïa de Sfax (Tunisie), de Mezrata (Tripolitaine); cheikh Dhafer, de Cons- tantinople, et ses moqaddim	1.699	10 »	16.990 »
ZIANIA Zaouïa de Khenatza (Maroc); cheikh Si Mohammed ben A'dallah.....	3.159	10 »	31.590 »
AÏSSAOUA Zaouïa de Meknès (Maroc); cheikh El-Hadj Abdelkadir et ses moqaddim.....	3.583	10 »	35.830 »
TAÏBIA Zaouïa d'Ouazzan (Maroc)	22.148	10 »	221.480 »
SENOUSSIA Zaouïa de Djaghboub (Tripolitaine) et de Koufra.....	949	10 »	9.490 »
BOUA'LIA Zaouïa de Nefta, Tozeur (Tunisie).....	364	10 »	3.640 »
SELLAMIA OU SOULAMIA Zaouïa de Tunis.....	91	10 »	910 »
RAHMANIA Branche de Nefta, zaouïa de Nefta (Tunisie)	13.949	10 »	139.940 »
DERQAOUA Zaouïa de Bou-Berih et des Beni-Khaled (Beni-Snassen, Maroc).....	9.567	10 »	95.670 »
QADRIA Zaouïa du Kef, Nefta, Tozeur (Tunisie)... Cheikh Si - Mohammed - el - Mortada, en résidence à Beyrouth.....	11.304 1.446	10 » 10 »	113.040 » 14.460 »
TOTAL.....			702.180 »

المصدر: Octave Depont et Xavier coppolani , Les confréries religieuses musulmanes, p253

ملاحظة: لم نعد كتابة الجدول للحفاظ على أهمية شكله من المصدر .

وهذا الجدول الذي أدرجه ديبون وكوبولاني في كتابهما دليل آخر على قوة الرحمانية والتيجانية والقادرية وكذلك الدرقاوية مقارنة بالطرق الصوفية الأخرى، وذلك من خلال كثرة مواردها السنوية خاصة من "الزيارة" (مبلغ مالي يقدم لشيخ الطريقة عند زيارتها) المقدمة لشيخوها ومرابطيها.

2. علاقة شيوخ الطرق الصوفية مع السلطة العثمانية:

بينت العديد من الدراسات وخاصة الفرنسية طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية، والتي تجسدت في التحالف تارة خاصة في العهد الأول، والتخالف تارة أخرى خاصة في أواخر العهد العثماني بالجزائر.

فمثلا يرى شوفاليه كورين (Corinne Chevallier) في كتابه «ثلاثون سنة لقيام مدينة الجزائر» والكاتب بوير (Boyer) في كتابه «مساهمة في دراسة سياسية ودينية للأتراك في إيالة الجزائر» بأن المرحلة الأولى تتميز تعامل العثمانيين مع الطرق الصوفية بالتقارب والتعاون، لأن هذه الفترة كانت لاتزال تشهد حركة الجهاد ضد الاسبان وهو أهم وسيلة للتقارب والتحالف بين الحكام وشيوخ الزوايا والمرابطين، في حين تعامل الحكام العثمانيون مع رجال الطرق الصوفية في المدن باعتبارها مناطق خاضعة، بطريقة خاصة حيث وفروا لهم وضعية مريحة، كما استفادوا من مغانم الغزو البحري وفي المقابل التزموا عدم التدخل في الأمور السياسية، أما في الأرياف فالاهتمام كان أقل لكنهم حرصوا على عدم إثارتهم من أجل مساعدتهم لترسيخ قاعدتهم بالجزائر، بل وحاولوا في بعض الأحيان استمالة المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية وذلك من خلال إعطائهم ضمانات ومنحهم امتيازات (Boyer, 1966, p.36).

أما علاقة التخالف والاصطدام، فقد بدأت خلال القرن السابع عشر للميلاد، الذي يوصف بفترة الانتعاش والرخاء الاقتصادي لإيالة الجزائر بفضل غنائم الأسطول، واستتباب السلطة في أيدي العثمانيين، ما جعلهم يعزفون بشكل أو بآخر عن الاستعانة بالصوفيّين (Boyer, 1966, p.37).

وخلال القرن 18م الذي تجلّى فيه اختلال التوازن بين الشرق والغرب وكان هذا له الأثر الكبير في تراجع الإتاوات البحرية والضرائب، والتي كانت من أهم موارد الخزينة، توجهت السلطة العثمانية في إيالة الجزائر إلى تقليص الامتيازات التي كان يتمتع بها العلماء والأولياء وشيوخ الطرق الصوفية لتعويض النقص فتحوّلت هذه القوة الدينية إلى معارضة للسلطة ومالت إلى جانب الرعية، ففقدت بذلك السلطة المركزية العثمانية أكبر سند وقف إلى جانبها في عدة مناطق، و لمدة طويلة من الزمن، والذي يتمثل في شيوخ الطرق الصوفية، وهو ما أوجد نوع من الإحباط و فقدان الثقة عند الزعامة المحلية السياسية، و هذا الإحباط واليأس ساعد القوى الدينية على بسط نفوذها فتوجهت نظرة الناس إل المرابطين، لكونهم من كبار المتصوفين في القوى الدينية، بل أكثر من ذلك أنهم يلتمسون

النجاة على أيديهم وساهم ذلك في إثارة العصبية الدينية بين السكان وأعطى للمرابطين مكانة هامة بين السكان (وولف، 1986، ص.27).

ومن جهة أخرى بدأت السلطة العثمانية في الجزائر تبحث عن مصادر إضافية أو بديلة لتغطية النقص، فما كان منهم إلا الضغط على الأقاليم لمضاعفة الضرائب وفرضها أكثر على الرعية، واخضاع القبائل الخارجة عن السلطة، وبما أن العديد من القبائل رفضت دفع الضرائب، بما فيها الزكاة، اضطرت السلطة إلى إرسال القوات العسكرية لتأديبهم، وإجبارهم على الدفع ومن يرفض يتعرض لعقوبات؛ وقد عبر عن ذلك دي غرامون (De Grammont) في كتابه "تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك" بقوله: "أن كل مادة منتجة قابلة للدفع لم تفلت من نظام الضرائب المطبق في الإيالة" (De Grammont, 1887, p. 210)

فتميز هذا العهد بكثرة الاضطرابات وثورات رجال الطرق الصوفية ضد السلطة العثمانية، فمناطق تواجد الطريقة التيجانية في الغرب الجزائري كانت في صراع دائم مع باي وهران عثمان بن محمد، الذي حاول إخضاعها في نهاية القرن 18م لكنه انهزم في معركة قرب عين مهدي، ثم أعاد الكرة آخر بايات وهران "الباي حسن" الذي استطاع بسط سيطرته عليها بعد مقتل الشيخ سيد أحمد التيجاني (الأغا المزاري، 1990، ص.ص. 352-359)؛ وفي نفس المنطقة ثارت كذلك الطريقة الدرقاوية ضد الباي حسن (coppolani & Depont, 1887, p.280).

وشهدت منطقة قبيلة "فليتة" بغليزان عدة ثورات في عهد العثمانيين والتي قادها "بن شريف" في بداية ق19م (Colette, 1957, p. 332)، وفي منطقة معسكر اندلعت انتفاضة شعبية ضد باي وهران، بقيادة عائلة الأمير عبد القادر وعائلة التيجاني، وفي شرق البلاد أراد الشريف الدرقاوي ابن الأحرش من خلال ثورته على الإدارة العثمانية سنة 1804 السيطرة على "بونة"، حتى أنه هزم باي قسنطينة "عثمان" وقتله مع 500 من جنوده (Papie, 1879, p. 43).

هذا الوضع الذي يمثل شبه قطيعة بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية وبالتالي عامة الشعب الذين كانوا تحت إمرتهم، وبذلك انعزل النظام عن الرعية، وزادت بينهم الحواجز، وأدى ذلك إلى سخط السكان وعدم الرغبة في التضامن مع النظام الحاكم، بل وأحيانا تمنى زواله، وهذا كان من أهم أسباب سهولة سقوط مدينة الجزائر وعدة مناطق من البلاد في يد الاحتلال الفرنسي. (رامي، 2016 – 2017، ص.05)

3. موقف الطرق الصوفية من الاحتلال الفرنسي في الجزائر وسياسته معها:

بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر وتوقيع معاهدة الاستسلام من طرف الداي حسين في 05 جويلية 1830، لم يبق من المؤسسات المنظمة سوى الطرق الصوفية، التي حاولت تعويض السلطة العثمانية باحتواء السكان وتنظيمهم، ورغم أن بعض شيوخ الطرق الصوفية وبالتواطئ مع بعض شيوخ القبائل تعاونوا مع الاستعمار للحفاظ على سلطتهم الدينية وامتيازاتهم، بعد أن نجح الاستعمار في استمالتهم، إلا أن غالبية شيوخ الطرق الصوفية قادوا أو شاركوا في مقاومات شعبية مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي.

وحتى نبين نظرة الإدارة الاستعمارية إلى دور شيوخ الطرق الصوفية في قيادة القبائل والمريدين إلى مقاومتها أو الثورة والانتفاضة عليها، سنعرض ما جاء بهذا الخصوص في بعض كتابات ضباط الجيش الفرنسي، الذين عايشوا الأحداث وكانوا يرفعون تقاريرهم حول المقاومات الشعبية إلى الإدارة الاستعمارية.

هناك إجماع لدى أغلب المؤرخين الفرنسيين خاصة ضباط الجيش الفرنسي في كتاباتهم أن الأسباب الدينية هي المحرك الأساسي لبداية المقاومة واندلاع الثورات والانتفاضات الشعبية، وذلك بسبب توجه الزوايا وشيوخها الذين كانوا يمثلون المرجعية الدينية في الجزائر (Trumelet, 1884, p.03)

ويقول الضابط لوي رين (Rinn L.) أن تعاليم الدين الاسلامي والقرآن الكريم هي سبب دائم لاندلاع وتواصل الثورات الشعبية (Rinn, 1884, p.510)، وفي هذا الصدد بالغ وحرف بعض المؤرخين الفرنسيين منهج القرآن الكريم في آياته التي تتحدث عن الجهاد وقتال الكفار ليظهروا أن العربي المسلم يحب القتل والتحريض عليه (Sabatier, 1882, p.p.20-25).

وقد ربط العديد من ضباط الجيش الفرنسي في كتاباتهم هذا التأثير الديني السلبي بالنسبة للوجود الفرنسي في الجزائر بالطرق الصوفية والزوايا وزعمائها الدينيين، فالإدارة الاستعمارية تعتبرها - أي الطرق الصوفية - جماعات سرية ذات مآرب سياسية (أجيرون، 2007، ص.549)؛ والزوايا بهذا المفهوم أصبحت تشكل خطرا على الفرنسيين لأنها لم تصبح فقط مكانا لتخفيظ القرآن، ولكنها تحولت أيضا إلى مراكز للثورات، وقد تفتنت الإدارة الاستعمارية لدور هذا التنظيم الديني في تأجيج نار المقاومة وقيادتها رغم غموض تنظيمها (فركوس، 2007، ص.9).

حيث قال العقيد دونوفو (Denouveau): "هذا التنظيم الخفي والقوي (الطرق الصوفية) هو الذي كان يسمح للجزائريين بالثقة في أنهم سيدعونهم باسم الله ومحمد إلى الثورة وينتزعونهم من أعمالهم الزراعية، بينما نضطر نحن إلى استعمال القوة باستمرار لإجبار الأهالي على اتباعنا؛ وبسبب قوة هذه التنظيمات السرية قامت السلطات الفرنسية بالقيام بعدة دراسات ومراقبة الزوايا ونشاط الطريقة وتنظيمها، والعلاقة بينها وبين غيرها والوسائل التي تستعملها لتحرض الجماهير ضد الوجود الفرنسي، وهذا تداركا لإهمال تلك الجوانب في تقاريرهم اليومية والشهرية وعجزهم في البداية عن اكتشاف شيء واضح للتنظيمات الداخلية لهذه الزوايا وقد عبر عن ذلك ماكماهون (McMahon) عام 1851م قائلا " يجب على الإنسان أن يمضي حياته كلها في الزاوية حتى يعرف ما يجري وما يقال فيها" (دركوش، 2010-2011، ص.7).

ويقول لوي رين (Louis Rinn) في ذلك: "الثورات دائما موجودة في الأماكن التي تسيطر عليها التنظيمات الدينية (الزوايا)، والتي تدعم زعيم التمرد... وفي بعض الأحيان تجمع الثورة مشايخ دين (Khouans) من طرق مختلفة في الأصل هي غير متفاهمة مثلما حدث في ثورة المقراني سنة 1871" (Rinn, 1884, p.111).

ويصفها دونوفو في أحد تقاريره قائلا "إن الزوايا هي مراكز للتآمر وإشعال فتيل التمرد، وهي معادية للوجود الفرنسي، وتحظى بكثير من الاحترام من الأهالي"، كما وصفها أيضا: "إن تجمعات الإخوان هي هيئات يكون أعضائها هيكلا مترابطا تم تشكيله من قبل، تسكنه طائفة هائلة، وتدفعه إدارة واحدة تجعله يتحرك بطريقة جماعية.." (شلي، 2008-2009، ص ص. 126-127)

ويؤكد نوليت (Colonel Noillat) أن الزعماء الدينيين هم من يدفعون الشعب إلى الثورة لأنهم دائما ناقدون على الاستعمار الفرنسي" (Noillat, 1882, p.105)، كما يعتبر الضابط سباتيه (Sabatier) تأثير الأئمة والمشايخ وزعماء الطرق الصوفية كسبب رئيسي في المقاومات والثورات الشعبية (Sabatier, 1882, pp. 30-31).

ويدعم ذلك الضابط "فريش" (Frisch) "بالقول أن: "العربي المسلم مستعد للتضحية من أجل الشيخ الذي أعلن الثورة والذي يسمونه أحيانا "المهدي"، وإن انهزم يقولون أن ذلك مقدر له وأن

الخلاص من الكافر مقدر ألا يكون على يده بل على يد آخر ولهذا يتواصل القتال وتتواصل الثورات الشعبية" (Frisch, 1899, p. 161).

وقد وصف شارل روبير أجرون (Charles- Robert Ageron) الطريقة الرحمانية بقوله: "الرحمانية تبدو في شكل جمعية قوية بل في صورة حلف سياسي، كما نسب إليها حقا أو باطلا وقوفها وراء جميع الحركات المتمردة على النظام، ما من انتفاضة وقعت في الجزائر إلا وكان الإخوان التابعون لمختلف الزوايا قد لعبوا فيها دورا حيويا"، وتحدث الجنرال "هانوتو (Hanoteau)" من جهته عن نفوذ الطريقة الرحمانية وينسب إليها تزايد مشاعر الاستقلال ضد الهيمنة الأجنبية، وكذا بعث الروح الوطنية التي لا ترضى بالاستسلام (أجيرون، 2007، ص.ص. 550-552).

كما شرح "ليون روش (Léon Roches)" سنة 1844 أهمية قادة الطرق الصوفية في تفجير الانتفاضات الشعبية بقوله: "يشرح كثير من الناس إلى القول بأن العرب ينفرون من الأشراف... هذا اعتقاد خاطئ، الحقيقة أن ارتباط الأسياد بأسيادهم لازال قائما، ما انتفاضة الجزائر برمتها ضد فرنسا إلا استجابة لنداء أولئك الأشراف" (شليبي، 2008-2009، ص. 128).

ويعتبر لوي رين Louis Rinn أن ثورة 1871 لم تكن لتندلع لولا الدوافع الدينية حيث يقول أن ثورة المقراني والحداد وبومزراق بالقبائل الكبرى، احتضنها الجزائريون وباركتها الزاوية الرحمانية (Rinn, Histoire De L'insurrection de 1871 en Algérie, 1891, p. 102)، ويضيف في كتاب آخر: "لم تكن انتفاضة المقراني لتتحول إلى ثورة عارمة لولا انقياد الإخوان الرحمانيين لنداء شيخهم وحملهم للسلاح بصورة جماعية" (Rinn, 1884, p. 552).

رغم ذلك كله وجد الاحتلال الفرنسي من يساعده من المتعاونين والمناوئين لحركة المقاومة المسلحة في بداية فترة الاحتلال إلا أن أغلبهم كانوا من زعماء القبائل والأسر الإقطاعية الكبيرة والأعيان (بوطالب، 2009، ص. 136)، بالإضافة إلى بعض الخيانات التي تعرض لها بعض قادة المقاومات الشعبية من بعض أتباعهم أو منافسيهم في مناطق النفوذ، أمثال فرحات بن سعيد في الزيبان وبوعزيز بن قانة في بسكرة ضد أحمد باي، ومصطفى بن إسماعيل في "الزمالة والدواير" في بايلك الغرب ضد الأمير عبد القادر، إلى جانب عدد من أعيان قبائل أ ولاد سيدي الشيخ الذين حاربوا أبناء عمومتهم تحت لواء الجيش الفرنسي (رامي، 2016 – 2017، ص. 255).

ولم تكن الطرق الصوفية وشيوخها مسؤولة أو داعمة لأغلب صور الخيانة والتعاون مع الاحتلال الفرنسي في مراحلها الأولى بالجزائر، رغم أن صراعا وتنافسها فيما بينها في بعض المناطق جاء في صالح الاحتلال الفرنسي ولعل أبرز مثال على ذلك صراع وحرب الأمير عبد القادر مع محمد الصغير التيجيني زعيم الطريقة التيجانية في الأغواط الذي كان موقفه سلبيا من مقاومة الاحتلال، كما أن هذه الطريقة الصوفية ساهمت في إضعاف ثورة أولاد سيد الشيخ سنة 1864 (رامي، 2016 – 2017، ص.ص. 205-206).

فقد كانت الطريقة التيجانية استثناء منفردا في التعامل مع الاحتلال الفرنسي، ففي الوقت الذي رفعت أغلب الطرق الصوفية لواء الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي وفي مقدمتها القادرية والرحمانية، لم تكتف الطريقة التيجانية بالوقوف في وجه قادة المقاومة الشعبية كما فعل قائدها في الأغواط محمد الصغير ضد الأمير عبد القادر بل أعلنت في مناطق أخرى من الجزائر ولائها لسلطة الاستعمار خاصة في عين ماضي وتماسين وتقرت (شيخ، 2016-2017، ص.221)، وقد اختلف المؤرخين في ذكر أسباب هذا الولاء، بين كونه مجرد مهادنة للسلطة الحاكمة من أجل المحافظة على البقاء واستمرار سلطتهم الدينية والاقتصادية على المناطق نفوذهم إلى أن تتغير الظروف (سعد الله، 1997، ص.ص. 192-194)، أم أنه من منطلق ديني عقدي باعتباره قضاء وقدرًا وعقابا من الله يجب تقبله وبالتالي لا يجب مقاومة الفرنسيين (تيران، 2007، ص.147).

وتعاضد التعاون والتخاذل الطريقي مع الاستعمار الفرنسي مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، وذلك بعد جهود كبيرة بذلتها الإدارة الاستعمارية لإضعاف هذه التنظيمات واستمالة شيوخها، فأصبحت الطرق الصوفية في هذه المرحلة عنوانا للخضوع ودعم الاستعمار ورفض كل أشكال المقاومة.

فقد تنهت الإدارة الاستعمارية إلى البنية السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية للطرق الصوفية ورأت في ذلك خطرا على وجودها، بل اعتبرت تلك الطرق بمثابة دويلات داخل دولة، فراحت تُضعف الكثير منها، عن طريق مصادرة الحبوس (الأوقاف) ومنع الزيارات بحجة أنها تثقل كاهل الناس إلى درجة أصبحوا عاجزين على دفع الضرائب إلى السلطات (Rinn, Marabouts et Khouans, Etude sur L'islam en Algérie, 1884, p. 450).

وهذه مرحلة مهمة لشلها وتحطيم بنيتها، عن طريق ضرب مواردها المالية المتمثلة في الهبات والزيارات والأوقاف والتي سيطرت عليها كلها الإدارة الاستعمارية، وحاولت استمالة بعض شيوخ الزوايا إليها بعد ذلك بمواردها الخاصة، واستطاعت بذلك أن تكسب إلى صفها بعض هؤلاء الشيوخ (شلي، 2008-2009، ص.127).

4. مقارنة استنتاجية:

هناك العديد من نقاط التباين بين علاقة الطرق الصوفية مع سلطة العثمانيين بالجزائر وسلطة الاحتلال الفرنسي بها، وقد وضعنا البعض منها خلال عرضنا أعلاه، لكننا سنركز على جوانب معينة باستعمال منهج المقارنة والمقاربة كالتالي:

- كانت علاقة الطرق الصوفية مع السلطتين الحاكمين بالجزائر في الفترتين المذكورتين سواء العثمانية أو الاستعمارية الفرنسية على مراحل من التحالف تارة والتخالف تارة أخرى، ويكمن الاختلاف أن الطرق الصوفية كانت في تقارب وتعاون مع السلطة العثمانية في مرحلة سلطتها الأولى بينما شهد أواخر عهد العثمانيين في الجزائر خلافا مع الطرق الصوفية وصل إلى حد ثورة بعضها على السلطة الحاكمة، وكان الأمر على العكس تماما مع سلطة الاحتلال الفرنسي حيث شهد العهد الأول صراعا شبه كامل للطرق الصوفية مع الاحتلال الفرنسي التي قادت المقاومة العسكرية ما عدا الطريقة التيجانية، بينما شهدت المرحلة الثانية من الاحتلال تعاوننا وتخادلا شبه كامل للطرق الصوفية مع سلطة الاحتلال.
- الغريب في الأمر أن أكثر الطرق الصوفية خروجاً على سلطة العثمانيين ومعاربة لها هي على العكس الطريقة الأكثر خضوعاً وتعاوناً مع سلطة الاحتلال الفرنسي، وهي الطريقة التيجانية.
- الأكيد أن عدد وحدة الثورات وصراع الطرق الصوفية مع سلطة الاحتلال الفرنسي كان أكبر بكثير مع تلك التي كانت مع السلطة العثمانية، وذلك ببساطة أن سلطة الاحتلال الفرنسي كانت صليبية كافرة وجب جهادها، بينما كانت سلطة العثمانيين تمثل الخلافة الإسلامية والمنقذ من الاحتلال الإسباني في المرحلة الأولى، ولم تخرج الطرق الصوفية عن سلطة العثمانيين في الجزائر إلا إذا أحست بالظلم جراء مضاعفة الضرائب أو الانتقاص من صلاحياتها ونفوذها الجغرافي والديني والاقتصادي (فيلالي، 1976، ص.ص. 48 - 49)

● العلاقة بين الطرق الصوفية والسلطة العثمانية في مجملها كانت تكاملية حيث أن السلطة العثمانية أزرت شيوخ الطرق الصوفية وأمدوهم بكل أنواع الهدايا والعطايا لاستعمال نفوذهم الديني في إخضاع الناس ومنعهم من الثورة على السلطة العثمانية بحجة أن القدر والعناية الإلهية هي التي هيئتهم لحكم المسلمين وأن المتمردين عليهم سيقع لا محالة في قبضة المسيحيين الصليبيين؛ خاصة في فترات قرب خطرهم أو تواجدهم بالجزائر مثل الفترة الأولى للعثمانيين التي أعقبت نجاتهم للجزائر من الوجود الإسباني بها أو صدهم لمختلف الهجومات والتحرشات الأوروبية بسواحلها (معيوش، 2021، ص.ص. 180-181)، وهذه الفكرة ذكر بعض المؤرخين أن بعض الطرق الصوفية في الجزائر قد تبنتها في مراحل متفرقة وفي مقدمتها التيجانية في تبرير موقفها المتعاون مع الاستعمار الفرنسي باعتباره قدرا مقدورا، وهذا رأي العديد من المؤرخين الفرنسيين مثل "إيفون توران" في كتابها: "المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة"، حين أكدت أن التيجانيين اعتبروا الاحتلال عقابا من الله (تيران، 2005، ص. 147)، لكن أبو القاسم سعد الله يرى أن المؤرخين الفرنسيين استغلوا خلاف التيجانية مع الأمير عبد القادر وتفضيلهم الحياد لنشر الدعايات حول موقفها من الاحتلال (أبو القاسم، 1997، ص.ص. 192-194)، ومع ذلك تشير العديد من الدراسات أنه مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م فإن الموقف الغالب للتيجانية اتجاه الاستعمار هو المهادنة والتعاطف، وهذا ما يظهر في تصريح أحد مقدمين زواياها بالزيان بقوله "أن الله هو الذي منح الجزائر للفرنسيين وجعلهم مسيطرين عليها..." (بلحاج، 2008، ص. 11)

● اكتسبت الطرق الصوفية وشيوخها مكانة أفضل بعد دخول العثمانيين إلى الجزائر اثر استنجد سكانها بهم، حيث أصبحت مهمة الجهاد التي هي أساسية في التصوف تحت مسؤولية السلطة العثمانية بالجزائر، وبذلك تفرغ المرابطون وشيوخ الطرق الصوفية إلى العلم وأعمال الخير وبناء المساجد والزوايا فزادت قيمتهم واحترامهم عند الناس الذين لم يعد الدين الإسلامي في أذهانهم إلا طريقا صوفيا (معيوش، 2021، ص. 181)، وتواصل هذا الاحترام والاتباع الشبه أعى في الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي عندما تبنت وقادت الطرق الصوفية المقاومة ضد الاحتلال، بينما فقدت الطرق الصوفية مكانتها بين السكان في المرحلة التي أصبحت فيها خاضعة للاحتلال وتنادي بتحريم محاربته كما أشرنا سابقا، بل وأصبحت عنوانا للبدع والخرافات والتخلف وتكريس الجمود وارتقاء ملكات العلم وتدنيه وانتشار الفتور المستحكم بين الناس كما أشار البشير الابراهيمي في

تفسيره لأهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحية مع بداية ثلاثينيات القرن العشرين. (الابراهيمي، 1997، ص. 74)

خاتمة:

مما سبق يمكن أن نستنتج ما يلي:

- طبيعة الصوفية كمنهج أو مذهب أو توجه ديني يجعل من شيوخها ومرابطيها من خلال تمسكهم الشديد بالعقيدة وحبهم لنشر الدين الإسلامي وتعاليمه وزهدهم في الدنيا، وحسن تصرفهم مع الرعية قدوة شبه عمياء للمريدين.
- هناك كتابات فرنسية معينة في مقدمتها كتابات ديبون وكوبولاني ولوي رين اختصت في دراسة الطرق الصوفية، درست الدين الإسلامي بشكل و مختلف الطرق الصوفية في الجزائر بفروعها وأماكن انتشارها وأسماء شيوخها وعدد أتباعها ومعتقدات التصوف فيها، وكانت هذه الدراسات أصلاً لبقية الكتابات حول هذا الموضوع، ومنها كتابات أبو القاسم سعد الله ويحيى بوعزيز.
- تعاملت السلطة العثمانية مع شيوخ الطرق الصوفية بطرق مختلفة حسب الأوضاع، من خلال استمالتهم ومنحهم صلاحيات واسعة في المراحل الأولى أين كانت في حاجة إليهم وهذا ما جعلها في تحالف وتفاهم معها.
- بعدما أصبح الحكم العثماني في الجزائر قويا لجأ إلى التحكم في القبائل والسيطرة عليها، ثم عندما تناقصت مداخل الدولة من الاتاوات والضرائب البحرية خلال القرن 18م بدأت السلطة العثمانية في الجزائر بزيادة الضرائب على القبائل والطرق الصوفية مما جعلها تدخل في خلافات والصراعات متعددة.
- نبه المؤرخون الفرنسيون وفي مقدمتهم ضباط الجيش الفرنسي بفضل كتاباتهم الإدارة الاستعمارية إلى البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للطرق الصوفية فرأت في ذلك خطراً على وجودها، فراحت تُضعف الكثير منها، عن طريق مصادرة الحبوس ومنع الزيارات بحجة أنها تثقل كاهل الناس، كما استعملت أسلوب الإغراء والاستمالة بالمناصب والامتيازات.
- استطاعت الإدارة الاستعمارية أن تحتوي وبشكل كبير خطر الطرق الصوفية مع نهاية القرن 19 وبداية ق20، والدليل على ذلك أن آخر الثورات الشعبية خاصة في الشمال (ثورة بني شقران

والأوراس) لم تدعمها الطرق الصوفية، بل على العكس أصبحت أغلب الطرق الصوفية متعاونة مع الاستعمار ضد الحركات الوطنية والإصلاحية وحتى الثورية.

- هناك عدة نقاط تباين بين طريقة تعامل الطرق الصوفية مع السلطة الحاكمة في فترتي العثمانيين والاحتلال الفرنسي، لعل أهمها تقاربها مع السلطة العثمانية في مرحلتها الأولى بالجزائر ومع سلطة الاحتلال الفرنسي في مرحلته المتأخرة، والعكس تماما بالنسبة لمسألة الخلاف والتخالف.

لقد التمسنا من خلال ورقتنا البحثية هذه أن موضوع التحولات المختلفة في سلوك الطرق الصوفية في تعاملها مع السلطة الحاكمة في الجزائر بين الحكم العثماني وحكم سلطة الاستعمار الفرنسي مهم جدا نوصي بتوسيع الدراسة في جوانبه، وسنسعى في ذلك بحول الله، والدليل على ذلك كثرة المصادر الفرنسية التي تناولت الموضوع والتي اعتمدنا على بعضها في موضوعنا، لكنها تحتاج الكثير من التمحيص والتحليل تجنباً لتكريس الطرح الاستعماري في قضايا تاريخ الجزائر كما سعى العديد من المؤرخين الفرنسيين خاصة منهم ضباط الجيش الفرنسي في كتاباتهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (1997). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 04). بيروت: دار الغرب الاسلامي.
2. أحمد طالب الابراهيمي. (1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (المجلد 01). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
3. ايفون تيران. (2007). المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس و الممارسات الطبية و الدين، 1830-1880. (محمد عبد الكريم اوزغلة، المترجمون) الجزائر: دار القصبة.
4. بن عودة الأغا المازري. (1990). طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر (المجلد 02). (تح: يحيى بوعزيز، المترجمون) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
5. جون ب. وولف. (1986). الجزائر وأوروبا. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
6. دركوش، أ. (2010-2011). مواقف الطرق الصوفية من الاستعمار في الجزائر وتونس: (1830-1914) القادرية والتيجانية أنموذجا. رسالة ماجستير. الجزائر: قسم التاريخ - كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة الجزائر 2.
7. سيدي محمد رامي. (2016 - 2017). المقاومات الشعبية في الجزائر وتونس - دراسة تاريخية مقارنة (1830-1916). أطروحة دكتوراه. تلمسان، الجزائر: قسم التاريخ - كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة أبو بكر بلقايد.
8. شارل روبر أجيرون. (2007). الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871-1919). (محمد حاج مسعود، المترجمون) الجزائر: دار راند للكتاب.
9. شهرزاد شلي. (2008-2009). ثورة واحدة العمري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في ق19م. رسالة ماجستير. باتنة، الجزائر: كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة الحاج لخضر.
10. صالح فركوس. (2007). إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد (1844-1871). عنابة - الجزائر: منشورات جامعة باجي مختار.
11. عبد القادر بوطالب. (2009). الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية. الجزائر: الشركة الوطنية للفنون المطبعية.

12. لعرج شيخ. (2016-2017). موقف الطريقة التجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال وغرب إفريقيا خلال القرن 19م وبداية ق20م..رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر. وهران، الجزائر: جامعة وهران 01.
13. مجموعة من المستشرقين. (بلا تاريخ). دائرة المعارف الإسلامية (المجلد 15). (أحمد الشناوي وإبراهيم فرشيد، المترجمون) بيروت، لبنان: دار المعرفة.
14. مختار الطاهر فيلاي. (1976). نشأة المرباطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني (المجلد 01). باتنة، الجزائر: دار الفن القرآني للطباعة والنشر.
15. معيوش، ب. (2021، جوان). من صور الالتحام بين الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالجزائر. مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية، 07 (01)، ص.ص. 175-184.
16. ناصر بلحاج. (30 جوان، 2008). دور الدعاية العثمانية الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر والدعاية الفرنسية المضادة خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918). مجلة الواحات للبحوث والدراسات، 01 (01)، 1-25.
17. Boyer, P. (1966). Contribution à l'étude politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger. Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 01, p. 36.
18. Colette, A. (1957). Les Flittas, étude ethnologique et sérologique. Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris, X^e Série (Tome 8, fascicule 5-6).
19. coppolani, X., & Depont, O. (1887). Les confréries religieuses musulmanes. Alger: typographie et lithographie Adolphe Jourdan.
20. De Grammont, H. (1887). Histoire de l'Algérie sous la domination turque (1515-1830). Paris: eroux.
21. Frisch, R. (1899). considération sur la défense de l'Algérie la Tunisie et L'Armée d'Afrique. Paris: imp librairie militaire.
22. Noillat, C. (1882). L'Algérie en 1882. Paris: librairie militaire de J.Dumain.
23. Papie, A. (1879). Histoire d'un soulèvement Kabyle en 1804 suivie de considérations sur les insurrections de l'Aurès depuis la domination Romaine en Afrique jusqu'à nos jours. (Dagaud, Éd.) Paris.
24. Rinn, L. (1884). Marabouts et Khouans, Etude sur L'islam en Algérie. Alger: Adolphe Jourdan Libraire-Editeur.
25. Rinn, L. (1891). Histoire De L'insurrection de 1871 en Algérie. Alger: IMP Jourdan.
26. Sabatier, C. (1882). La questions de la sécurité, insurrection et criminalité : les difficultés Algériens. Alger: Adolph le Jourdan librairie Edition.
27. Trumelet, C. (1884). Histoire de l'insurrection des Ouled Sidi Ech-chikh (sud Algérie) 1864-1880. Alger: Adolphe Jordan Libraire-Editeur.